

النكبة في سوريا

من وادي العبودية القاتم الذي ندعوه « الارض » يتصاعد ضجيج هائل
تتصل اطرافه بالسماء فترنو نجومها الى الاسفل مدعورة مضطربة ، لانها لم
تسمع بمثله منذ سُقفت الارض بالسماء .

ذلك ضجيج المتيمين الى الانسانية وقد اشتبكوا في عراق هائل سيذكره
التاريخ مسمى اياه « حرباً عمرانية » . والمنخرطون فيه قد انقسموا قسمين ،
قسم يعارك بعضهم بعضاً ليكون لهم النفوذ والاثرة وقسم آخر يعارك الجوع
والهم واليأس .

من خلال هذه الجلبة تسمع الدهور وقع خطى ملايين من الارجل
الراحلة الى الابدية على طريق الفناء ويتصل باذانها من الارض هتاف الاسى
وانين النكبة ، ونحيب الحيرة ، وصدى اليأس الصامت

هذه بعض نتائج الحرب الضروس التي تدور رحاها الان طاحنة بويلاتها
ما كان في الارض من بشاشة وهناء وامن . ولم تكثف الحرب بان تعم
ويلاتها بلاد العناصر المتطاحنة بل تطرقت الى بلاد لم يحرك اهلها ساكناً ،
وانما حكم عليها موقعها الجغرافي ان تعرض جسمها لسهام النكبة وتقاسي من
البؤس ما لا قبل لها به ولا طاقة على احتماله . فداستها سناك الويل فسقطت

٥



مشهد من مشاهد

الى الحضيض دامية ، مدفنة ، تستغيث باهل المروءة والانسانية .
من هذه الاقطار التي ضحيت على مذبح الحرب بلاد البلحيك وارمينيا ،
وقصتها في النكبة مشهورة . ولكن هنالك قطراً ثالثاً يدوي صوت استغاثته
في آذاننا ، وقد انشب البؤس مخالفه في جسسه ، واصبح احق البلاد المنكوبة
بالاسعاف . وهذا القطر البائس هو سوريا .

سوريا - بلاد الانبياء ، مهبط الشرائع والاديان - القطر الذي شرفه
الوحي - البلاد التي كانت تدر لبناً وعسلاً ، وتقيت سواها بما فاض من
محصولاتها اصبحت الان مهبط الشقاء ومهد الويل ومسرخ الهول . فقد
تفتشت فيها المجاعة وعمت الفاقة وسرى الوباء ومشى موكب الموت يتقدمه
الخوف ، فاشتد الضيق بالاهلين ونفذ القوت ، فباتوا ينتظرون الهلاك في
منازلم الخالية بعد ان اقفرت حقولهم ، وسدت طرق الفرج في وجههم ،
وانقطعت عنهم سبل المواصلات من الداخل والخارج

✽ نكبات سوريا التاريخية ✽

وليست هذه النكبة باول ما طرق سوريا من طوارق الحدثنان ، فقد
عانت هذه البلاد من الشقاء في تاريخها ما لم تقاسه بلاد أخرى . وما اكثر
الويلات في البلاد الذي يعرضها لمقام الفاتحين ويجعلها طريقاً
للامم يمر فيها كل مكنتح عاتٍ
أول ما يذكره التاريخ من نكبات سوريا مجاعات واوبئة ذكرتها التوراة
نوردها على سبيل الفائدة .

في ايام ابرهيم حدث جوع في الارض اضطره الى مغادرتها الى مصر
(سفر التكوين ص ١٢ ١٠٤) وتلاه جوع آخر بعد برهة على ايام ابنه اسحق
ثم في اواخر ايام يعقوب حدثت المجاعة الشهيرة التي عمت الارض سبع سنوات .
وبسببها انتقل الاسرائيليون من فلسطين الى مصر انتجاعاً للقوت . وكان
يوسف الصديق اذ ذلك قيماً على اهراء فرعون التي احتاط لاملائها بعد ان
رأى فرعون في حلمه المشهور سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . ثم
حدث جوع شديد بعد صعود الاسرائيليين من مصر واكتساحهم فلسطين على
ايام حكم القضاة وظل عشر سنوات (سفر راعوث) . ثم تلته مجاعة في ايام
الملك داود ظلت ثلاث سنوات (صموئيل ص ٢١ عد ١) وقد جاء ايضاً
في التوراة ان الله سلط على بني اسرائيل في ايام الملك داود بن يسى وباء
لم يطل غير ثلاثة ايام ، فمات به سبعون الفاً في نهار واحد . وعقب ذلك
بعد مرور زمن جوع عم البلاد في ايام ملك اسرائيل آخاب دام ثلاث
سنوات لانحباس المطر . وهو الجوع الذي اضطر النبي ايليا التشبي لسببه ان
يذهب الى صرفة التي لصيدون فصادف ارملة لها ملء كف من الدقيق وقليل
من الزيت ، وهي تفتش عن عودين لتعمل قرصاً لها ولابنها ليا كلاً ويموتا ،
فانقذها بعجيبه ذكرتها التوراة . وحدث بعد ذلك جوع تنبأ عنه اليسع
تلميذ ايليا دام سبع سنوات .

وتتابعت بعد ذلك في اوقات متباينة من التاريخ مجاعات مثل هذه
ذكرها المؤرخون ولم تكن تعم البلاد بل انحصرت في بعض اقسامها مسببة

عن قحطٍ موقت ، او حروب اهلية ، او حصارات محلية . ولم يكُ ما يستحق الذكر حتى حدث عام بوءس شديد الوطأة في صدر التاريخ الاسلامي عقيب افتتاح العرب سوريا بقليل على ايام عمر بن الخطاب . وهو العام الثامن عشر للهجرة ويدعوه مؤرخو الاسلام « عام الرمادة » لان الريح كانت نسفي تراباً كالرمادة . واصاب الناس فيه مجاعة شديدة وجذب وقحط . واشتد الجوع في كل مكان وفي الحجاز خصوصاً حتى جعلت الوحش تأوي الى الانس ، وحتى صار الرجل يذبح الشاة فلا يجد فيها بعد سلخها سوى عظم أحمر . وزاد هول المجاعة طاعون شديد اشتدت وطأته في سوريا وهو المعروف في التاريخ باسم « طاعون عمواس » فكاد الناس ان يتفانوا منه ومكث شهوراً فمات فيه من جيوش المسلمين المرابطين في سوريا ٢٥ ألفاً . وفي جملتهم القائد الشهير ابو عبيدة بن الجراح الذي كان أمير البلاد وفي السنة ٢٩١ للهجرة اصاب سوريا طاعون شديد في خلافة عبد الملك بن مروان الاموي فكاد ان يفني اهله . وبسببه لم تستطع الجيوش ان تتحرك لغزو الروم .

وفي السنة ٩٨ للهجرة على ايام سليمان بن عبد الملك الاموي حدثت زلازل كثيرة متتابعة سببت اضراراً جسيمة وأذى للناس ودامت ستة اشهر وفي سنة ١٠٨ هـ . في خلافة هشام الاموي كان بسوريا طاعون شديد وفي سنة ٢٤٢ للهجرة (٨٥٧ م) في خلافة المتوكل العباسي حدثت زلازل هائلة فهدمت المباني وهلك تحت الانقاض خلق كثير وراققها خسف

واصوات منكرة .

وفي سنة ٢٤٥ هـ (٨٦٠ م) زلزل شمالي سوريا فسقط في انطاكية وحدها الف وخمسمائة دار وسقط من سورها نيف وتسعون برجاً وتقطع الجبل الاقارع فسقط قسم منه في البحر وغارت انهار برمتها فلم يعلم اين ذهبت . وأصبحت اللاذقية اكثر من سواها فلم يسلم من اهله الا اليسير وهلك اهل جبلة .

وفي سنة ٢٦٦ هـ (٨٨٠ م) على ايام المعتمد العباسي انتاب البلاد قحط شديد فعمّ الغلاء سوريا وغيرها من الاقطار المجاورة

وفي سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٢ م) كان قحط عام وتبعه وباء عظيم فاصيبت سوريا وجاراتها العراق ومصر والموصل وامتد الوبل الى خراسان فروي ان اربعين الف ميت دفنوا في مدينة اصبهان العجيبة وحدها في بضعة ايام ولم تخلُ دار في الاقطار المذكورة من مصيبة ، لعموم المصائب وكثرة الموت

وفي عام ٤٢٥ هـ (١٠٣٤ م) انتابت الزلازل بلاد الشام فانهدم ثلث المنازل في اكثر البلدان وهلك خلق كثير تحت الردم . وزاد في الطين بلة انتشار داء الخوانيق فمات به كثيرون حتى كانت الدار يسد بابها لموت اهله

وفي سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) كان وباء وجوع في سوريا

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) كانت زلزلة عظيمة خربت كثيراً من البلاد وسقط فيها سور طرابلس .

وفي سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) كان وباء عظيم جارف . وكان الموت

كثيراً حتى بقي كثير من الغلات في الحقول ليس لها من يعملها .
وفي سنة ٤٧٩ و ٤٨٤ و ٤٨٧ هـ (١٠٨٦ و ١٠٩١ و ١٠٩٤ م) اعادت الزلازل
الكرة على سوريا فهدمت فيها بلداناً كثيرة ففارق الناس مساكنهم الى الصحراء
هرباً ومن لم يهرب هلك تحت الردم .
وفي سنة ٥١٨ هـ (١١١٤ م) حدثت مجاعة سببها انقطاع الامطار
بقلت الاقوات و غلت الاسعار غلاءً فاحشاً . ودام ذلك سنة
وفي سنتي ٥٣٢ و ٥٣٣ هـ (١١٣٧ و ١١٣٨ م) حدثت زلازل عظيمة
متوالية فخرت بلاداً جمة ولاسيما حلب ، فان اهلها فارقوا بيوتهم وخرجوا
الى الصحراء . وعدوا ليلة واحدة جاءتهم الزلزلة فيها ثمانين مرة
وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) كان بسوريا زلازل كثيرة قوية قدمرت
بلاداً كثيرة وهلك فيها ما لا يحصى من البشر . وخرت بلداناً بالمرّة منها
حماء وحمض وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحصن الاكراد وعرقه
واللاذقية وطرابلس وانطاكية . ومما يروى عن كثرة القتلى في هذه الزلزلة
ان معلماً بمدينة حماه فارق مكتبه لمهمة عرضت له فجاءت الزلزلة فخرت
المدينة وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم ، فلم يأت احد
يسأل عن صبي له في المكتب .

وفي سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) عادت الزلازل فنكبت سوريا وتتابعت
بهول شديد لم ير الناس مثله وخرت مدينة حلب كلها .
وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٩ م) عمّ القحط البلاد فحدث غلاء فاحش وجوع

شديد . وتعذرت الاقوات فأكل الناس الميتة وما شابهها ودام ذلك سنة
ونيف ثم تبعه وباء عام كثر فيه الموت . وكان مرض الناس واحداً وهو
السرسام . فلم يكن من يدفن الموتى .
وفي سنتي ٥٩٦ و ٦٠٠ هـ (١٢٠٠ و ١٢٠٤ م) عاودت الزلازل سوريا
فأثرت في البلاد أثراً قبيحاً ولا سيما بدمشق وحمص وحماه ومدن الساحل
وفي سنة ١٤٠٠ م حدثت اعظم نكبة اجتاحت سوريا حتى هذه الايام
وهي شبيهة بالنكبة الحالية من حيث تعدد أهوالها وشدة وطأتها . فقد
اجتمعت فيها ويلات الحرب والقحط والجوع والوباء . وابتدأت
بقدم تيمورلنك التتري وجيوشه الى البلاد فكان ذلك مقدمة البلاء لان
هذا الاعرج الحديدي كان ذا قلب لا يعرف الشفقة فخرّب المدن واحرق
المعاهد العلمية والمساجد وأسر الوجهاء والادباء ومشاهير رجال الصناعة
فساقهم معه فخلت سوريا منهم . وامعنت جيوشه في البلاد قتلاً ونهباً
وارتكبت الفظائع وقتلت الشيوخ والاطفال وسبت النساء . وقبل ان يرحل
تيمورلنك عن سوريا لمقاتلة السلطان بايزيد التركي جاء الجراد فأتلف
النبات والاشجار فحصلت مجاعة هائلة وجاء الوباء ثلاثة الاثاني فاجتمعت
الضربات المريعة في وقت واحد .

وفي سنة ١٥٠٣ م على ايام الملك قانصوه الغوري قبيل فتح السلطان سليم
التركي سوريا جاء سيل عظيم دام ٢٧ يوماً فكانت منه مضار لا تحصى .
وطغى نهر العاصي وبردى وانهر لبنان فاتلفت واهلكت وسببت للسكان

اضراراً فاحشة .

وفي سنة ١٥٧٩ م على أيام السلطان مراد حدث جوع سببه القحط وتبعه طاعون مات به كثيرون .

وحدثت في اوقات مختلفة نكبات طفيفة غير التي ذكرناها من زلازل واوبئة محلية وضيقات ناتجة عن حروب لم تخل منها سوريا جيلاً هذا ملخص ما استطنا ايراده من نكبات سوريا . واكثرها ناتج عن قحط او وباء ولكنها كلها اذا جمعت الى بعضها ليست لتذكر بازاء النكبة الماثلة المخيمة الان فوق تلك الربوع القديمة .

❖ اسباب النكبة الحالية في سوريا ❖

نستطيع ان نعزو النكبة الحاضرة في سوريا الى سبب واحد هو الحرب . ولكن بلاداً كثيرة اصبحت بهذه الحرب الزبون وذقت بلاياها من موت وهلاك وتدمير ومع ذلك ترى تأثير النكبة فيها قليلاً يكاد لا يظهر ، وذلك لاستعدادها وتأهبها لمقاتلة الشدة ولتعاونها على مدافعة النكبة . اما سوريا فهي ، وان كانت حتى الان متكبجة عن ميادين القتال ، فقد ذاقت اشد البلايا وتجرت كاس النكبة دفعة واحدة فلم يمانلها في ذلك قطر من الاقطار للاسباب الآتية -

اولاً . لما زجت تركيا نفسها في غمار هذه الحرب لم تكن جيوشها مستكملة المعدات من حيث الاكسية والاقوات فحجزت السلطة العسكرية كل ما توصلت اليه في سوريا من الاقوات والاشياء اللازمة للجنود فلم

يبقى في البلاد ما يكفي لحاجاتها ، قفلت سائر الاشياء الضرورية كمواد الوقود والحاصلات الزراعية والزيت والمواشي والزاد والاقمشة ، وارتفعت اسعارها ارتفاعاً فاحشاً .

ثانياً . ساءت الحكومة للخدمة في الجيش كل الصالحين للعمل من شبان وكهول ، ولم تترك في البلاد غير الشيوخ والاطفال والنساء ، فلم يبق ما يكفي لاستغلال الارض وتعاطي الصنائع . واصبحت العائلات خلواً ممن يعيلها . فاشتدت فاقتها .

ثالثاً . انقطعت الواردات التي كانت تأتي من اوربا وغيرها ولم تك البلاد تستغني عنها . وقد سبب ذلك النطاق الذي ضربه الاحلاف حول سوريا بحراً . قفل البترول والسكر والاقمشة وما شاكل وعز على الاغنياء اقتناءها فكيف بالفقراء .

رابعاً . اضطر كثير من الشبان الذين هم ركن عائلتهم الوحيد ان يفتدوا انفسهم من الجندية مراراً فكانوا يدفعون آخر بارة عندهم وربما رهنوا بيوتهم او استدانوا من المرابين ليتمكنوا من البقاء في بيوتهم لاعالة اهلهم قفل بذلك المال . واصبح الواحد منهم يهلك نفسه في العمل ليتمكن من اسكات المرابي وسد حاجات العائلة الضرورية

خامساً . زحف الجراد على قسم كبير من البلاد وكانت المزروعات في الحقول فالتهمها وراح بأخر امل كان الاهلون يعللون انفسهم به سادساً . تفشت الاوبئة المتعددة في جهات القطر كله فاضافت الى الجوع

والخوف شدة . وحبست الناس عن الاهتمام باعمالهم
سابعاً . وقفت حركة الاشغال في البلاد فانقطعت اسباب الرزق عن
التاجر والعامل واصبح اكثر العمال بطالين وليس لهم مورد ينفقون منه على
عيالهم ولا من يقرضهم في هذه الازمة الشديدة فزاد ذلك في الطين بلة
فهذه الاسباب وسواها من الامور السياسية اوسعت المجال للنكبة في
ربوع سوريا فقاسى الناس الموض ولا سيما في الشتاء الماضي اذ بات اكثرهم
بلا وقود ، ولا طعام سوى اردأ اصناف الدقيق فكان المنكوبون يموتون
- بعضهم بالجوع ، وبعض بالحمى التيفوئيدية وبعض بالدوسنطاريا ، وغير
ذلك من الوبئة ، حتى قيل ان ثمانين الفاً ماتوا في جبل لبنان وحده

✽ اخبار النكبة ✽

وردت اخبار النكبة الى المهجر اولاً من مصر الى الجرائد السورية في
نيويورك فلم يصدقها كثيرون وعدوها مبالغة مقصودة لما رب سياسة .
ولكن الامر ما عتم ان ثبت عقيب ورود رسائل خصوصية الى افراد من
المهاجرين تنم عن وجود النكبة بصراحة رغم تحفظ المراقبين . وازداد الخبر
وثوقاً عندما عاد الى نيويورك بعض المرسلين الاميركيين من سوريا ، فرووا
ما شاهدوه بام عينهم مما لم يترك مجالاً للشك وزاد الخبر تأكيداً ما ترويه
جرائد سوريا من وقت الى آخر بتحفظ كلي عن اخبار الوباء والجوع ،
فيرى القارىء بين سطورها المختصرة اخباراً ضافية هائلة عن ويلات مريعة
قد انغمس في غمارها الشعب السوري ففاقت نكبته كل نكبة

وقد آثرنا ان ننقل بعض ما نعتقد به الصحة من مرويات الجرائد في
وصف النكبة . وفي ما نقله اخبار تصور فظائع النكبة باجلى بيان وتوءثر
حتى في الجلايد .

✽ وصف شاهد عيان ✽

جاء في جريدة « المقطم » تعريب رسالة ظهرت في جريدة التيمس لسيدة
اميركية معروفة موثوق بكلامها وقد قدمت من سوريا موء خراً ، تقبس
منها ما يأتي -

سوريا تنضور جوعاً

ان سوريا تنضور جوعاً . وليس قولي هذا مجازاً ولكنه حقيقة لا مراء
فيها فقد غادرناها منذ شهرين وكنا ستة اثنين من ارمينيا واربعة من سوريا .
وخمسة اميركيون والسادس يوناني . فاجتزنا جميع بلدان اوربا المحاربة
ورأينا فيها مناظر احب شيء الينا ان تمحى عن اذهاننا ولكن كل ما شاهدناه
فيها لا يقاس في فظاعته بسوء الحال في تركيا الاسيوية . وان قلبي ليحجز
عن وصف تأثير الحرب في تلك البلاد فأقتصر على بعض الامور الاجبالية
مما وقع تحت نظري في العامين الماضيين .

بدء تأثير الحرب

لم تكد تضطرم الحرب حتى حصرت الحكومة الفرنسية الشواطئ
حصراً بحرياً شديداً فانقطع اتصال سوريا بسواها واضطرت الى الاعتماد
على مواردها . ولا يخفى ان محاصيل البلاد تكفي لاطعام اهلها واضعافهم .

قفي العام الاول لم تشعر البلاد بحاجة الى الطعام ولكن نقصتها البضائع والمصنوعات والاطعمة الاوروبية . نعم ان كثيرين عانوا مرارة الفاقة بسبب تعطل الاعمال ولكن الاموال الطائلة التي تبرعت بها جمعية الصليب الاحمر الاميركية مكنتنا من توزيع الدقيق على المحتاجين اسبوعياً وتشغيل عدد كبير من الرجال والنساء بلا انقطاع فكان الرجال ينظفون الشوارع ويرمون الطرق ويبرهنون بذلك للبلدية ما تستطيع القيام به من هذا القبيل والنساء يعملن في خياطة الثياب والتطريز والدتلا (الارلند والكروش) فانتضى الشتاء (شتاء ١٩١٥) بصعوبة ولكن من غير ان يبلغ الضيق حد اليأس وكنا نتنظر الفرج بحلول فصل الربيع .

غزوة الجراد

ولكن الربيع بدلاً من ان يأتينا بالفرج جاءنا بالجراد . ان ذكرى الجراد منقوشة في قلبي فلا استطيع ان اذكره او اصف فتكه من غير ان يعتريني قرف شديد .

لما جاء الجراد لم نعبأ به في اول الامر بل اخذنا نتأمله كما يتأمل المرء المنظر الجديد غير المألوف ورأينا الناس حولنا يقصدون الحقول والبساتين وهم يقرعون الصفائح ويصيحون ليخيفوا الجراد ويمنعوه من النزول الى الارض ورعي ما فيها وكانت ارجاله خفيفة في اول الامر في كل قدم مربعة نحو ٢٠ جراداً وهو في طبقتين .

وفي الصباح التالي خرج الجراد من مبيته قبلنا وصرنا نرى ارجاله كأنها

الفنون

قطع مرصوصة رصاً وقد أكلت اغصان الشجر في الجنائن وبراعم الازهار وظلت الحال على هذا المنوال اسبوعاً ثم استقر الجراد على الرمال الواقعة بين شاطئ البحر واسناد الجبل المحصبة فغطى تلك البقاع وكساها ثوباً اسود ضارباً الى الصفرة . وهناك باض الجراد ومات .

الهمة واليأس

فأدر كنا الان ان الضربة القادمة ستكون شراً من الاولى واخرجت جمعية الصليب الاحمر مئات من الرجال والصبيان للبحث عن البيض واستخراجه فجاءوا بألوف الاكياس المملوءة به واتلقوها ولكن على غير جدوى فان البيض الباقي تقف بعد مدة وحيزة واخذ الديبي (صغار الجراد) يزحف كأنه حيوش من النمل الكبير الاسود واجتاز الرمال الى الحقول فلم يترك حقلاً الا بعد ما ألتهم كل خضراء فيه من عشب وادغال وشجر حتى لحاء الاشجار وكان الجراد اذا دنا من قرية استقبله اهلهما بمنتهى العزيمة لان الناس صمموا على افراغ منتهى الجهد في صون مزروعاتهم التي هي طعام عائلاتهم في فصل الشتاء فكانوا يقيمون السياجات من الشوك والعليق حول الحقول ولكن الجراد لم يعبأ بهذه الاحتياطات بل واصل الزحف وهو يلتهم الطري ويقضم اليباس فاذا لم تجد الجرادة امامها ما تأكله اكلت جاريتها

ولما بلغ الديبي سياجات الشوك التي تقدم ذكرها تسلقها بعضه واحترقها الباقي فاجتمع الناس وضرمو النار في تلك السياجات فحرقت ملايين من الجراد ولكن هذه الملايين تلاها الوف الملايين وهي تزحف فوق النار والرماد